٢ - طرف عن عمـــان

النزعة النزارية اليمانية

ولقد أكثر (صلى الله عليه وسلم) من النهى عن هذه الدعوة حتى أمر بشدخ المنادى بها بالسيوف كما أسلفناه ، وكذلك خلفاؤه الأبرار . ومن كعمر وحرصه على قمعها إذ نهى بشدة وغلظة عن رواية شعر المناقضة التى بين قريش والأنصار . وقد مر ذات يوم بحسان ابن ثابت وهو ينشد الناس بالمسجد فأخذ بإذنه وقال : يا هذا ارغاء كرغاء البعير فقال له حسان : دعنى يا عمر فلقد رأيتنى أنشد من هو خير منك فى هذا المحل فيظهر لى استحسانه ؛ فمضى وتركه ولكن بعد أن نشرت هيبة عمر على حسان وسامعيه سحابة من وجوم . فانظر إلى أى حد بلغت الشدة من عمر حتى أنه يأخذ بإذن شاعر الرسول يؤنبه على إنشاده الناس الاشعار المثيرة للعصبية . وقل مثل هذا عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب فإنه كان يحذو حذو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى بغضه لهذه الدعوة الموبقة . وكان لا يرى لأحد على أحد فضلا إلا بالتقوى ، وخلاصة القول فإنك لن تجد فى عصر هؤلاء الخلفاء الكرام من ينادى بهذه الدعوة المثيرة أو تسمع له ركزا .

بيد أن قرنها قد ذر فى زمن معاوية ابن أبى سفيان وإن حادثة عبد الله بن الحجاج ابن الحشرج الثعلبى ثم الغطفانى لتكشف لنا الستار عن مبدأ ظهورها . وذلك أن كثيراً ابن شهاب الحارثى من سادات مذحج ومن امراء القحطانيين كان على أحد الجيوش المبعوثة من العراق إلى خراسان فى زمن معاوية وكان عبد الله بن الحجاج من فرسان هذا الجيش ، وبارز يوما أخد فرسان الخراسانية فقتله ، وأخذ سلبه وكان ثمينا فلم يدفعه إلى صاحب المغانم ، فنفس عليه كثير ذلك وطلبه منه فلم يدفعه إليه ، فأمر بضربه وسجنه ، ثم إن ابن الحجاج أفلت من السجن ، ورجع إلى العراق وجعل وكده اهتبال الفرصة بابن شهاب حتى وافاه يوما بأحد أسواق الكوفة ، فشد عليه بعمود هتك به مقادم أسنانه فخر صريعا ، ومضى ابن الحجاج وهو يظن أنه قد قضى عليه وراح يفتخر بقوله .

من مبلغ ابنى نزار أنى أدركت مظلمتى من ابن شهاب

ويعنى بابنى نزار ، فرعى معد ابن عدنان ، وهى مضر و ربيعة .

وعلى أثر هذه الحادثة اجتمع كثير من سادات اليمانية وإشرافهم وكتبوا لمعاوية ابن أبى سفيان كتابا جاء فيه : إن خسيسا من غطفان اعتدى على سيدنا كثير ابن شهاب ، فإن شئت أن تقيدنا من أسماء ابن خارجة فعلت .

وأسماء هو أسماء بن خارجة بن عيينة بن حصن بن حذيفة الفزارى ، سيد غطفان ، وقد تزوج الحجاج بن يوسف بأبنته هند بنت اسماء ، وجمع بينها وبين هند ابنة المهلب ابن أبى صفره الأزدى القائد العظيم ، ولما قدمت ليلى الأخيلية على الحجاج ومدحته بأبياتها المشهورة التى منها : —

احجاج لا تعطى العصاة مناهم
ولا الله يعطى للعصاة مناها
إذا نزل الحجاج أرضا مخوفة
تتبع أقصى داءها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام إذا هز القناة سقاها

حباها وأحسن وفادتها وخيرها بالنزول على أى الهنديين شاءت ، فأختارت هندا بنت اسماء ، لأنها من قيس عيلان وقالت إن نزولى عند ابنة عمى خير لى ، وإكرم لها ، ولا حاجة بالأجنبية .

وأما معاوية ابن أبى سفيان ، لما قرأ كتاب اليمانيين الذين يطلبون القود من اسماء بدلا من ابن الحجاج ، قال: كلا لم أر كتاب قوم أحمق من هذا ، وكتب لهم القود ، من لم يجن محظور ، والجانى محبوس فليقد منه .

ولكن ابن شهاب وقومه لم يرق لهم هذا الجواب فقالوا كلا، لا نستقيدها إلا من سيد مضر . وبلغ معاوية قولهم هذا ، فاطلق ابن الحجاج ، وقال أنا سيد مضر فليأخذوا قودهم منى .

وهكذا ذهب حق ابن شهاب لدى السلطان جزاء الخنزرانة التى أبت عليه إلا أن يأخذ البرىء بالمذنب ، وما ذاك إلا أنه لا يرى أن ابن الحجاج يصلح أن يكون له نداً ، وإن بوائه لا يكون إلا فى سيد مضر وهو اسحاق بن خارجة ومن هنا ترى أن هذه النعرة قد بدأت (بعد أن قضى عليها الرسول الأكرم وخلفاؤه من بعده) فى زمن

معاوية ، وحركت فى وقت مروان ابن الحكم الأموى الذى قاد اليمانية يوم مرج راهط لمحاربة القيسية الذين بايعوا .

الضحاك ابن قيس الفهرى لعبد الله ابن الزبير حين اجتمعت جميع قيس معه ، وقيس مناط القلادة من مضر وإذا تدبرت شعر مروان ابن الحكم بعد هذه الوقعة علمت كيف استغل أثارة هذه العصبية ليستفيد من حمية هذه القبائل اليمانية ، وانظر إليه يعدد هذه القبائل اليمانية التى دافعت عنه قيساً وكسرتها ، مفتخراً بها ومنددا بقيس ومرسلاً عليها شديد مقته وشواظ غضبه وإن كانوا من أصله من مضر قال :

لما رأيت الأمر أمرا صعبا
يسرت غسان لهم وكلبـــا
والسكسكيين رجالا غلبا
وطيئـــا تاباه إلا ضربا
ومن تنوخ مشمخرا صعبا
لا يأخذون الملك إلا غصبا
وإن دنت قيس فقل لا قربا

وانظر معى فى أبيات زفر ابن الحارث الكلابى القيسى تحس منه الندم المرير على ما فرط منه من الهزيمة والتحرق على أخذ الثأر من قبيلة كلب بن وبرة الفضاعية وهى قبيلة الشرارات اليوم كما ذكرها الإمير شكيب أرسلان رحمه الله فى أحدى مقالاته فى جريدة الشورى) .

وتلك القبيلة فى القحطانيين بمنزلة قيس فى النزاريين ، وإليك بعض أبياته : —

اتذهب كلب لم تنلها رماحنا
وتترك قتلى راهط هى ماهيا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط
لحسان صدعا بيننا متناهيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كماهيا
أيذهب يوم واحد إن أساته
بصالح أيامى وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنخط الخيل بالقنا
وتثأر من نسوان كلب نسائيا

وحسان الذى عناه بالبيت . هو حسان ابن مجدل الكلبى زعيم قبائل كلب وخال يزيد ابن معاوية ، وأما أبيات زفر فإننى أحس منها بمرارة الندم تلفظ من ألفاظه وجمرة الحقد تضطرم فى احشاءه .

فيخرجها شعره حمراء ملتهبة على سنان ذابلة لينحط بها خيل الكلبيين ويردى فوارسها ليشمت بهم نسوانه كما شمتت نسوان كلب قبلهن بهن ، وقد أجابه عمرو ابن المخلاة الكلبى بقوله .

بكى زفر القيسى من هلك قومه
بعبرة عين ما يجف سجومها
يبكى على قتلى أصيبت براهط
تجاوبه هـــام القفار وبومها
ابحنا حمى للحى قيس براهط
وولت شلالا واستبيح حريمها
يبكيهم حران تجرى دموعه
يرجى نزارا ان تؤوب حلومها
فمت كمدا أو عش ذليلا مهضما
بحسرة نفس لا تنام همومها
إذا خطرت حولى قضاعة بالقنا
تخبط فعل المصعبات قرومها
خبطت بهم من كادنى من قبيلة
فمن ذا إذا عز الخطوب يرومها

ولما قضى أمر مرج راهط وذلك فى سنة ٧٠ هجرية سار زفر بن الحارث الكلابى إلى « قرقيسيا » (مدينة على الفرات) وبايع عمير بن الحباب بن جعدة السلمى لمروان ابن الحكم ، وفى نفسه ما فيها بسبب قتل قيس بالمرج ، فلما سير مروان عبيد الله ابن زياد إلى الجزيرة والعراق كان عمير ابن الحباب معه ، فلقوا سليمان ابن صرد الخزاعى رئيس جيش التوابين ، طلبة ثأر الحسين (ع) بين الوردة ، ولما كسرهم عبيد الله ازمع السير إلى قتال زفر ابن الحارث « بقرقيسيا » وهو يومئذ زعيم قيس فثبطه عمير عنه ، وأشار عليه بالمسير إلى الموصل لقتال إبراهيم ابن الأشتر قائد جيش المختار ابن أبى عبيد الثقفى ، وقال له ينبغى أن تأتى الموصل قبل أن يأتيها إبراهيم ابن الأشتر ، فسار إليها ولقى إبراهيم بالخازر ، فمال معه عمير فانهزم جيش عبيد الله ، وقتل هو قتلة : « إبراهيم ابن الأشتر ، وقيل قتله شريك ابن جدير التغلبى ، وكان من أصحاب أمير المؤمنين ، ولما جاءه خبر مقتل الحسين عليه السلام

(البقية على ص ٣٧)